Journal of Engineering Sciences
Assiut University
Faculty of Engineering
Vol. 44
No. 4
July 2016
PP. 442 – 458

الاستمرارية والانقطاع وجهان لإستمرار التطور فى العمارة والعمران- رؤية نقدية

بالقاسم يوسف محمد البركى

طالب دراسات بقسم الهندسة المعمارية - كلية الهندسة- جامعة أسيوط- مصر.

Received 13 May 2016; Accepted 10 June 2016

ملخص

لطالما احتلت قضية الاستمرارية والانقطاع مكانة هامة عندما نتطلع لذلك التطور المعمارى واستمراره على الساحة والذى تنشده العمارة والعمران فى أى مكان وزمان، وكثيراً ما كانت نقطة الرجوع للماضى أو التغاضى عنه مثار جدل واسع يحمل توجهات فكرية تحاكى الماضى والحاضر والمستقبل. هنا نطرح السؤال الذى يقول:" ماهو الماضى الذى نتحدث عنه؛ أهو ذلك الفكر المجتمعى السائد والمعتقدات التى تحكم الأفراد ونشاطاتهم فى المجتمع آناداك، أم هو ذلك الإرث أو المظهر المعمارى والعمرانى لإمكنة عاشها سلفنا فيما مضى؟، ثم يأتى تساؤل آخر يكمل ما بدأه الأول فيقول:"أى الصورتين المذكورتين فى السؤال الأول التى فى حال استمرارها أو انقطاعها فكرياً لفترة من الزمن تؤثر أكثر فى التطور والتقدم المعمارى المنشود وكيف؟، سيحاول البحث الأجابة على هذين السؤالين من خلال رؤية تحليلية نقدية للمبدأ الفلسفى لحالتى الاستمرارية والانقطاع من منظور الفكر الماركسى والفكر البارجماتى، ومعرفة مدى ملائمة بعض من مفاهمهما لحالات التغيير الحادث فى مكونات الحاضر وبالإخص الفكر المجتمعى والمعتقدات أو فى العمارة والعمران.

من أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة، هى أن التغيير الحاصل فى الفكر المجتمعى السائد والمعتقدات فى مجتماعاتنا العربية بما يحملانه من إرث خلال فترات من الزمن سواء توفرت استمراريتهما بأصالتهما أو انعدمت هو الدافع الرئيسى الذى يفرض الاستجابة لتعاقب حالتى الاستمرارية والانقطاع على المظهر المعمارى والعمرانى بإى نهج يواكب واقع أى زمان ومكان، ويحترم الثوابت(الكتاب والسنة) ويتكيف مع أى متغيرات تناسب الداخل والخارج بالنسبة لمجتماعاتنا العربية.

1. مقدمه

الجدير بالذكر فى هذه المقدمة المرور على بداية مفهوم التقدمية، ذلك المصطلح الذى بدأ فى الظهور فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وكان بداية لظهور الأفكار والتوجهات التى تناقض ماجاءت به العديد من النظريات القديمة فى موضوع التطور والتقدم (النظرية الدائرية- النظرية الخطية المتناهية- نظريات التعاقب الحضارى)، والتى أجمعت كلها على أن القديم هو الخالق لكل جديد، فالحضارات من بداية دورتها إلى نهايتها، هى قديم يتطور فيتجدد ثم يصل إلى ذروته فيفنى.

وقد ارتبطت فكرة التقدم أو التطور فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بقوى وتيارات فكرية فى مجالات الحياة (وأغلبها كان يصب فى مجال السياسة)، والتى كانت بمثابة معتقدات تناضل للوصول إلى الأفضل، وتعمل على رفض تلك المعتقدات السابقة التى تكرس الأوضاع المتخلفة وتدعو لها، والتى تلغى دور العقل فى الإبداع وتلغى دور الإنسان فى التجديد[1]، أما فى القرن العشرين فقد إتخذ المصطلح والفكرة بعداً جديداً، إذ تجاوز فكرة الحقوق والواجبات التى كانت الميزة الأساسية لمفكرى القرنين الثامن والتاسع عشر، فصار الآن يتخذ أبعاداً عديدة، اقتصادية وعلمية وتكنولوجية وثقافية واجتماعية.

(1) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، جامعة صنعاء، قسم الفلسفة، مركز الإسكندرية للكتاب (1997)، ص17.

ولذلك أطلق على هذه القوى إسم "القوى التقدمية Progressivism"، وهى تعنى رفض الماضى الذى لم يعد بالإمكان استمراره وبقاؤه إذا ما استهلك كل إمكانيات وجوده ومبررات استمراره، فالتقدم إذاً على صلة وثيقة بمفهوم القديم والحديث، وهو يعنى التجاوز وليس التكرار، فالتقدم بمفهومه الأكثر حداثة هو التحول من حالة إلى حالة أفضل من حيث المقدرة الإنتاجية (التقدم الاقتصادى)، والسيطرة على الطبيعة (التقدم العلمى التكنولوجى)، والثقافة والعلاقات الإنسانية (التقدم الاجتماعى)[2].

وفى العالم العربى اليوم تنقسم النظرة لتطور العمارة والعمران وهى مكون مهم من مكونات المجتمع الكثيرة وفق مفهوم التقدم الذى أشرنا إليه إلى رأيين متضادين قد يربط بينهما رأى ثالث من حين لآخر، **الرأى** الأول والذى ينادى بالرجوع للماضى الذى فيه الحجة والسند للحاضر، والثانى ينادى بإنكار الماضى والنظر للمستقبل لأن التغيير فى الحاضر قد عم كل مكونات المجتمع، وما بين رجوع وهجران يأتى الرأى الثالث الذى يسعى للربط مابين النقيضين قدر الإمكان، والذى سنضيف إليه نتيجة هذا البحث والتى تؤكد أنه من الضرورى الاستجابة لتعاقب ظاهرتى الاستمرارية والانقطاع مع الماضى فى مجتمعاتنا؛ إذا ما توصلنا لنتيجة مفادها أن الثبات والتغيير حالتين متعاقبتين لمكونات المجتمع والتى من أهمها(التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية والمظهر المعمارى أو العمرانى) عبر الزمن، بشرط عدم المساس بالثوابت (الكتاب والسنة) والتكيف مع المتغيرات (التكنولوجيا وتقنية البناء ومواد البناء ..إلخ).

2. الدراسات السابقة فى مجال البحث، الإشكالية والأهداف، ومنهجية الدراسة

2. 1. الدراسات السابقة فى مجال البحث

إن الدراسات السابقة فى هذا المجال كانت منقسمة إلى ثلاثة اتجاهات فى الدول الغربية والعربية، وكانت منصبة على شطرى العمارة (الفكر و التشكيل) اللذان يخصان المنتج المعمارى.

- الإتجاه الأول: وهو اتجاه التحول لمعطيات العصر وعدم الإلتفات للقيم الموروثة، وقد كان الإفتراض الذى يقول بأن توفير الإستقرار (بين العمارة وظروف المجتمع) سوف يتحقق إذا كان التغير تغيراً جذرياً أى حدوث الانقطاع الذى يتلازم مع التحول الذى هو نوع من النبذ لفكر أوقيمة مثل(التقاليد والعلاقات الاجتماعية وحتى التشريعات) أو مظهر(البيئة المعمارية والعمرانية) كان حدوثهما مستمراً فى الماضى من أجل ظهور فكر أو مظهر آخر فى الحاضر من شأنه أن يستمر فى المستقبل.
- الاتجاه الثانى: وهو اتجاه الرجوع للماضى بإرثه واعتباره دليلاً مادياً للحاضر وهو الحجة والسند لمشكلت الحاضر التى ولّدت ضياع الهوية والوقوع فى هوة التغريب فى البيئات المحلية.
- الإتجاه الثالث: وهو الاتجاه الذى قد يربط بين الاتجاهين السابقين فهو ينادى بعدم قطع الصلة نهائياً بالموروث والإستمرار على مضامينه الفكرية قدر الإمكان، بما يتماشى مع التغيرات الحديثة خاصة فى الفكر وتطوير الحاضر بإعتباره يحوى الإيجابيات والسلبيات، والإبتعاد عن التحول الذى قد يوسع من هوة التغريب وفقدان الإنتماء أحياناً، وأيضاً لأنه يحتاج إلى جهد بشرى لايستهان به ورؤية ناقدة متمكنة للواقع، وقد يكون طفرة غير محمودة العواقب والتى قد تدفعنا إلى الخوف من المستقبل المحيط بنا والذى يحمل فى طياته توجهات وقيم وتكنولوجيا لابد من مجاراتها لنتماشى مع كل عصر شئنا أم أبينا.

أما موضوعنا فى هذا البحث فهو أقرب للاتجاه الثالث، حيث يحاول إضافة نتيجة جديدة مفادها؛ أنه من الضرورى الاستجابة لتعاقب ظاهرتى الاستمرارية والانقطاع على ساحاتنا حاضراً ومستقبلاً فى مجتمعاتنا، سواء على مستوى الفكر المجتمعى وحتى المعتقدات أو على مستوى المظهر المعمارى والعمرانى لمدننا العربية، طالما كان هذا التعاقب نتيجة للتغيير الحتمى الذى تمر به المجتمعات فى رحلة تطورها؛ وكذلك نتيجة أيضاً لفترات الثبات التى تقع فيها المجتمعات عند انتهاء عطائها نحو التقدم والتطور، كما وجدنا أن المنهج المتبع فى كلا الحالتين (الاستمرارية والانقطاع) كان دائماً قرين توجههما الفكرى، وهذا ما كان معتقداً لا يحتمل التغيير للاتجاهين المتناقضين(الرجوع أوالإنكار للماضى)، لذا سنقترح حرية اختيار المنهج فى حالة تغير المجتمعات فكرياً وفرضها لأنساق فعلية مسيطرة على كافة المجالات والعمارة والعمران أحدها، والتى قد لا تتماشى مع أى توجه فكرى.

---

(2) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، المرجع سابق، ص773.

2. 2. إشكالية البحث وأهدافه

فى خضم الجدلية الفكرية التى تدور حول الربط مابين القديم أو الجديد بحاضرنا المعاش فى جميع مجالات الحياة والعمارة والعمران إحداها إن لم نقل أهمها، تظهر لنا الحاجة الملحة لمعرفة فلسفة الإتجاهين المتطرفين بفكر أحادى الإتجاه، وكيف أن هذين النقيضين دائما ما ينكران الآخر سواءُ على مستوى التوجه الفكرى أو المنهج، والهدف واحد وهو إستمرار التطور المعمارى حاضراً ومستقبلاً، وأيضاً تدفعنا الرغبة لمعرفة ذلك الماضى الذى هو محور تلك الجدلية والذى يحوى ذلك الإنسان الذى أنتج ذلك الإرث المعمارى والعمرانى. وهنا نصل إلى السؤال الرئيسى لهذا البحث وهو:"ماهو الماضى الذى نتحدث عنه هنا؛ أهو ذلك الفكر المجتمعى والمعتقدات التى تحكم الأفراد بجميع نشاطاتهم فى المجتمع فيما مضى؛ أم هو ذلك الإرث أو المظهر المعمارى العمرانى لإمكنة عاشها سلفنا فيما مضى؟"، ثم يأتى تساؤل آخر يكمل ما بدأه الأول فيقول:"أى الصورتين المذكورتين فى السؤال الأول التى فى حال استمرارها أو انقطاعها فكرياً لفترة من الزمن تؤثر أكثر فى التطور والتقدم المعمارى المنشود وكيف".

وحتى يمكن للبحث الإجابة على هذا السؤال فأنه حدد مجموعة من الأهداف وهى:

1- توضيح حالتى الاستمرارية والإنقطاع من خلال الفكر الماركسى والبراجماتى
2- معرفة مدى ملائمة بعض من مفاهيم الفكرين (الماركسى والراجماتى) لحالات التغيير الحادث فى مكونات الحاضر بفكره ومعتقداته(تقاليده وعلاقاته الاجتماعية وتشريعاته العمرانية) أما بعمارته وعمرانه.
3- بيان الكيفية المقترحة التى تؤكد أنه من الضرورى الاستجابة لتعاقب ظاهرتى الاستمرارية مع الماضى والانقطاع عنه فى حاضر مجتمعاتنا بمكوناتها ومستقبلها.

2. 3. منهجية الدراسة

فى محاولة البحث الإجابة على السؤالين الرئيسين الذى تتضمنه الإشكالية البحثية، فإن البحث يعتمد على المنهج التحليلى المقارن، لفلسفة المنهج والتوجه للفكر الماركسى والبراجماتى فى قضية التطور والتقدم.

3. الرؤية النقدية: الاستمرارية والإنقطاع وجهان لإستمرار التطور المعمارى

1.3. ماذا الفكر الماركسى والبراجماتى؟

من خلال المعيار الزمنى للتاريخ نجد أن هناك نظريات رئيسية مثلت وجهات نظر متباينة لإشكالية التطور والتقدم فيه، وقد حددت مساره الذى يتخذه والقوى الفاعلة فيه، ووفقاً لذلك فإن الزمن التاريخى يتخذ ثلاثة أشكال وهى:"الدائرى، والخطى النهائى، والخطى اللامتناهى"، وهذا الأخير سوف نركز على مفهومه الفلسفى من وجهة نظر كلا من الفكر الماركسى والبراجماتى باعتبار أن منهج كلاً منهما يحقق المبدأ الفكرى لحالتى(الإستمرارية- والإنقطاع) المهمتين فى جميع مجالات الحياة، خاصة فى موضوع التطور المعمارى الذى هو موضوع البحث، فمجمل النظريات التى سبقت نظريات التطور والتقدم كانت ترى فى جميع التحولات التي يجتازها العالم أنها تجتاز نفس المراحل عائدة كل مرة إلي موقع انطلاقها راسمة دائرة في مسارها.

وبعض النظريات ترى أن هناك نظرة جديدة للتاريخ تَم فيها تحديد القوى الفاعلة والمسار الذى يتخذه التاريخ، فالله(سبحانه وتعالى) هو القوى المحركة للتاريخ، وما البشر إلا ممثلون للإرادة الآلهية وفعلها، وهناك من رأى تاريخ الحضارات يسير في مسار دائري يبدأ بنموها أو مرحلة تكوينها، ثم تأتى مرحلة تثبيتها وتدعيمها بقيادة جديدة، ثم تصل إلى مرحلة الرفاهية والاستقرار، ثم إلى مرحلة التقليد والحفاظ على الموجود وعدم التطور، لتصل الحضارات إلى مرحلتها الأخيرة وفيها تضّمحل فتزداد عوامل الفساد فيها ليتم الاستيلاء عليها من الداخل والخارج، وهكذا نجد أن كل نظرية قد سادت عصراً بأكمله مع بعض الاستثناءات، ثم أن هذه النظريات المختلفة عبرت عن مراحل تقدم العقل البشرى فى تدرجه فى تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية، لكن ماتميز به الفكر الماركسى والبراجماتى هو فكرة التطور أو التقدم التى جاءت كرد فعل ضد النظرية الدائرية التى هيمنت على الفكر اليونانى؛ وأثرت على الفكر الرومانى أيضاً، وجاءت أيضاً كرد فعل ضد الأفكار المتشائمة التى تلغى دور الإنسان، وكنقيض لفكرة التدهور لتؤكد قدرة الإنسان اللامحدودة على الارتقاء والكمال والتقدم اللامتناهى، ولهذا سيتم الربط مابين هذين الفكرين وبين موضوع تطور العمارة ومعرفة مدى ملائمة

بعض من مفاهمهما مع التوجهات الفكرية التى يتبناها البعض على الساحات المعمارية المختلفة والتى تنادى بتطور العمارة وتقدمها. وأخيراً فإن فلسفة الفكرين الماركسى والراجماتى من أبرز الفلسفات والتيارات الفكرية فى العصر الحديث التى تهتم بتقديم حلولا جديدة لعالم متجدد ومتطور بالرغم من التضاد بينهما منهجاً وفكراً.

3. 2. الفكر الماركسى

تؤمن الفلسفة الماركسية بأن العالم كله مترابط الأجزاء؛ الظواهر الطبيعية والإجتماعية والفكرية، وأن كل شئ يتغير فى حركة أبدية، وأن التقدم الإجتماعى والتاريخى قضية حتمية وجوهرية لايمكن إنكارها، والإنسان نفسه يتغير مع تغير ظروفه وحاجاته، فترى هذه النظرية التطور أو التقدم فى أى شئ يتم بشكل تراكمى كمى لا انقطاع فيه، وهو زيادة كمية للعناصر القديمة، فالقديم يواصل سيره فى أحشاء الجديد، كما أن الجديد متضمناً فى القديم، ففى مجال العلم سنجد أن أنصار فكرة الاستمرار يرون أن العلم يتطور ويتقدم بشكل مستمر وبطيء ومتدرج ينتقل كمياً وآلياً من البسيط إلى المركب[3].

3. 2. 1. منهج الفكر الماركسى

يعتمد الفكر الماركسى على المنهج التاريخى، فيرى أن تاريخ العلم لا تنقطع الصلة بين ماضيه وحاضره جذرياً، بل دائما هناك استمرارية مابين الماضى والحاضر بقطائع تصوييية تحاول حل المشكلات التى عجزت النظريات القديمة عن حلها[4]، فيرد كل إكتشاف علمى جديد إلى سابق فى الماضى، وهنا نلاحظ وجود الاستمرارية التاريخية.

3. 2. 2. التوجه الفكرى للماركسية

انطلق الفكر الماركسى من تلك المبادئ الفكرية السابقة له، والتى ترى بأن التطور يتم بشكل مثلث جدلى أطرافه(الماضى– الحاضر– المركب منهما)، إلا أنه كان يرى تناقضاً معها حيث كان الفكر فى السابق يرى أن أطراف المثلث متطابقة وهذا ما أُطلق عليه(وحدة الأضداد)، حيث أنها من منبع واحد وهو الأصل للفكرة المستعارة من الماضى، فلابد أن يتجسد الماضى دائماً وأبداً، بينما يرى الفكر الماركسى أن الأطراف غير متطابقة تطابقاً مطلقاً ولكنها موجودة وبينها صراع مستمر...، وقد يحدث تغلب طرف على آخر وهذا هو ما يعرف بى(حل التناقض) وهو ما يوصلنا إلى الاستفادة من مميزات القديم والابتعاد عن مساوءه[5]. إن الماركسية فى حقيقة الأمر لاتؤمن بالجدة المطلقة؛ إذ أنها تؤكد أن نفيها للماضى ليس مطلقاً لأن القديم يظل موجوداً فى الجديد فهو الوالد له، ثم إن الجديد لايعدو كونه إعادة دمج وتركيب لعناصر قديمة.

3. 2. 3. رؤية الفكر الماركسى لمسار التطور

إن رؤية الفكر الماركسى للمسار العام للتطور أو التقدم تختلف عن الرؤى التى سبقتها، والذى كما أشرنا فى مقدمة البحث يتخذ مساره عدة أشكال حسب النظريات القديمة، فمنها ماترى أن التطور يتخذ مساراً دائرياً، وأخرى تراه مساراً خطياً متناهياً، أو خطياً لامتناهياً صاعداً لاعودة فيه ولاتكرار، أما الفكر الماركسى فقد كان يراه يسير وفق مسارٍ حلزونى فى كل حركة فيه نفى وتكرار للأفكار القديمة ولكن على مستوى أعلى، وهذا الوصف للتطور أو التقدم كما جاء على لسان "إنجليز ولينين" يعنى أن "السلب لايعنى أن الجديد لايلغى القديم كله، بل الواقع أنه يستقى من القديم أفضل مافيه فيدمجه فى الجديد ويرفعه إلى الأعلى[6]، وقد وضعت الفلسفة الماركسية مفهوم "نفى النفى" والذى يلخص ما ذكرناه حالياً، والفكر الماركسى يرى أن هذه الحركة اللولبية تجرى فى المجتمع والفكر على حدٍ سواء، الشكل رقم(1).

3. 2. 4. مفهوم "قانون نفى النفى" فى الماركسية

إن قانون "نفى النفى" لدى الفلسفة الماركسية يقصد به "نفى القطيعة المطلقة" وذلك لأن الماضى يفنى لكن يبقى الأفضل منه، فالماركسية تؤكد النفى أى القطيعة مع الماضى غير المطلقة، لأنها بذلك ستكون مؤيدة للنفى العدمى "المجرد" الذى يعتبر عملاً مضاداً للتطور والتقدم، فالنفى الجدلى للماضى غير المطلق يعنى الهدم

(3) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، مرجع سابق، ص124.
(4) قطب، خالد، منطق التقدم العلمى، كلية التربية، جامعة القاهرة، دارقباء للطباعة والنشر والتوزيع(2003)، ص84.
(5) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، مرجع سابق، ص ص93- 94.
(6) محمد، على عبد العاطى، الفكر السياسى الغربى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية(1993)، ص399.

JES, Assiut University, Faculty of Engineering, Vol. 44, No. 3, July 2016, pp. 442 – 458

والبناء إنطلاقاً من أسس موجودة وليس التوقف والبدء من جديد[7]، فالماركسية تؤكد أنه من خلال "قانون نفى النفى" تجرى سلسلة من التحولات الكمية والكيفية بصورة لامتناهية، ولكل حالة من حالات التطور تنفى الحالة السابقة لها، ولكن هذا النفى يحوى بداخله الحالة السابقة ويرفعها ولايلغيها بشكل مطلق إذ يحتويها فى مركب جديد[8]. سنحاول لاحقاً معرفة مدى ملائمة هذا المفهوم لحالات التغيير التى تحدث فى المجتمع خاصة فى العلاقة ما بين الفكر والمعتقداتوالمظهر المعمارى أو العمرانى، تلك المتغيرات التى تندرج تحت مسمى الإحياء والإستلهام من التراث، الشكل رقم (1، 1-أ، 1- ب).

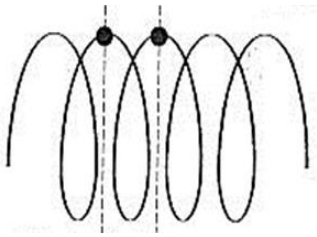

الشكل رقم(1): رؤية الفك الماركسى للمسار الحلزونى للتطور ودورة الحضارة والموضحة مابين النقطتين.الباحث.

الشكل رقم (1-أ): إحياء تراث العمارة الإسلامية (البساطة والجمال) فى جامع ابن طولون، وبعض التفاصيل الإسلامية كقشور فى الغلاف الخارجى للمبانى الحديثة فى الدول العربية[9].

الشكل رقم (1-ب): إحياء المعبد الإغريقى فى أروبا[10].

3. 3. *الفكر البراجماتى*

إذا كانت فكرة التطور والتقم تعد سمة جوهرية لفلسفة ترى العالم ناقصاً غير مكتمل؛ فإن الفلسفة البراجماتية هى صاحبة هذا الحق والإمتياز، إن التطور والتقدم من وجهة نظر هذه النظرية لايتم إلا بالتحولات الكيفية الجذرية، فأهم فترات التاريخ والوعى والعلم هى مراحل التقطع والوثبات وليس الاستمرار، وفهم التطور على أنه عملية مستمرة، يؤدى إلى القبول بالحتمية التاريخية، والقول أيضا بأن الاستمرار فى خط واحد يؤدى إلى التحديد المسبق لكل مظاهر حركة التاريخ والفكر والعلم[11]، إن الجديد ليس إستمرار

(7) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، مرجع سابق، ص146.
(8)Pagobert, D.Runnes:Twentieth century philosophy, philosophical, library. New York, 1943 pp485-484.
(9) www.greatbuildings.com.
(10) Gelernter,M.Source of Architecture form.
(11) الكحلانى ، حسن محمد (1997) ، فلسفة التقدم ،المرجع السابق، ص 128.

القديم وتكراره، بل بالإنشاق والخروج عن القديم إذ إن الجديد يظهر كلحظة فريدة على شكل وثبةٍ أو قفزةٍ أو طفرةٍ، ذلك أن فكرة التطور والتقدم مرتبطة منطقيا بفكرة البدء المتجدد[12].

1-3-3 المنهج البراجماتى

أصل كلمة براجماتية مشتق من كلمة يونانية (براجما)، وتعنى (العمل – أو الفعل)، ومنها تاتى كلمات مثل (ممارسة) أو (عملى)[13].

يستبعد هذا المنهج الرجوع للتاريخ فهو منهج إرادى لاتاريخى يعتمد على المعنى الحقيقى لأى فكرة أو نظرية من خلال الممارسة والنتائج العملية فى المستقبل، وبالتالى فإن قيمة الأفكار والنظريات تتحدد فى المستقبل وتستمد قوتها منه وليس من الماضى وهذا هو الجديد فى الفلسفة البراجماتية، والمنهج البراجماتى لا يهتم بمصدر الأفكار ولا بكيفية ظهورها وإنما يهتم بنتائجها العملية المؤثرة على سلوكنا وحياتنا[14]، ويصور الفكر البراجماتى فكرة التطور والتقدم من خلال عدة مفاهيم منها، "الجدة Novilty"، و"الإرتقاء Miliorism"، ووصف الكون بأنه تعددى الفكر "Pluralism"، ولذلك فإن هذه الأفكار تعبر عن فلسفة تقدمية تؤكد التغير التاريخى[15]، ولهذا فأن الهدف الآسمى لهذا المنهج هو المستقبل وأى فلسفة تتجاهل إشباع رغبة العمل للمستقبل هى فلسفة متشائمة[16].

3. 3. 2. التوجه الفكرى للبراجماتية

إن الفلسفات التى تكتفى بتحليل مكونات العالم ولاتعمل على تغيره وتكتفى بالنظر للماضى بدلاً من المستقبل لايوجد للتجديد والإبتكار فيها موطئ قدم، عكس البراجماتية الذى تتنبئ بالمستقبل من خلال تهذيب الحاضر وتهيئته مستبعدة العودة للماضى[17].

ينظر الفكر البراجماتى إلى الموروث القديم من زاوية التغيير لا الاستمرار، فالتراكم الفكرى والثقافى بقدر مايساعد على إغناء الوعى، يعمل أيضا على إعاقة تقدمه إن لم يحدث فيه تغيراً كيفياً وجذرياً، كما إن الاستمرارية دائماً وأبداً خطأ فالتاريخ ليس حلقات مترابطة بحيث تفضى كل منها للأخرى وهذا ينطبق على الفكر والعلم والثقافة[18]. وكما أن استمرار وتواصل تاريخ الفكر البشرى والحضارة البشرية حقيقة فعلية إلا أنه لابد من التركيز على مراحل التقطع والانفصال التى كانت دائماً ماتأتى بالإبداع والتجديد[19].

3. 3. 3. رؤية الفكر البراجماتى لمسار التطور

إن رؤية الفلسفة البراجماتية للمسار العام للتطور أو التقدم، لاتكون مشابهة لأى نظرة تَم ذكرها فيما مضى، وذلك لأن التحديد المسبق للمسار من وجهة نظر البراجماتية يفقد العقل الإنسانى قدرته على الخلق والإبتكار والإبداع، فكأننا إزاء نوع من الحتمية فى إطار فكرة التطور والتقدم، وبالتالى فإن المنهج البراجماتى يؤكد على الحرية والخلق والجدة والإبداع الإنسانى، فلاوجود لأى اتجاه محدد للتطور فالمستقبل يحمل فى طياته العديد من الممكنات والمفاجآت[20].

وقد وضعت الفلسفة البراجماتية مفهوم **"الجدة"** والذى يلخص ما ذكرناه حالياً.

3. 3. 4. مفهوم الجدة فى الفكر الراجماتى

إن مفهوم "الجدةالمطلقة" الذى وضعه الفكر البراجماتى، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدفاع عن الحرية الإنسانية، فالجدة نتاج فعل الإرادة الحرة، كما أن هذه الجدة المطلقة جاءت بها الفلسفة البراجماتية لتدعوا إلى الجديد المطلق، سواءً على مستوى الثوابت أو على مستوى المتغيرات فى أى مجال، إلا أنه يصطدم بالمبدأ الفكرى الذى لا خلاف

(12) جاستون، بشلار، حدس اللحظة ، ترجمة رضا عزوز ، عبد العزيز زمزم ، الدار التونسية ، ص 78-79.
(13) W.James: pragmatism,Prometheus books. Buffalo,New York. Pulished, 1991.
(14)- الكحلانى ، حسن(1997) ، فلسفة التقدم ، مرجع سابق ، ص 100.
(15) W.James: pragmatism, Prometheus books. Buffalo,New York, Pulished, 1991, p57.
(16) جيمس، وليم، إرادة الإعتقاد: الجزء الثانى (العقل والدين)، ترجمة محمود حب اللة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة(1949)، ص ص 51-52.
(17) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، مرجع سابق ، ص 104.
(18) المرجع سابق ، ص132.
(19) فوكو، ميشيل، حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص6.
(20) الكحلانى، حسن محمد، فلسفة التقدم، مرجع سابق ص 169.

عليه فى عمارتنا العربية والذى يقول "إذا تحققت الثوابت(الكتاب والسنة) فالتجديد فى المتغيرات لاضرر فيه"[21]، فالجدة المطلقة قد تكون مثار جدل فى قضايا الفكر عكس العلم التجريدى المبنى على المنطق الرياضى. وربما ندرجها تحت مفهوم التجديد والابتكار فى العمارة والعمران، الشكل رقم(2). وسنحاول لاحقاً معرفة مدى ملائمة هذا المفهوم لحالات التغيير التى تحدث فى المجتمع خاصة فى العلاقة ما بين الفكر والمعتقدات(التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية) مع المظهر المعمارى والعمرانى للمدينة العربية.

الشكل رقم (2): الجدة فى العمارة التفكيكية[22].

هكذا نصل إلى أن الفكرين الماركسى والبراجماتى يتنقضان تماماً من حيث الرجوع للماضى، وأن كلاً منهما يعتمد عل منهج أحادى يحقق مبتغاه؛ فالفكر الماركسى يعتمد المنهج التاريخى أما الفكر البراجماتى يعتمد المنهج اللاتاريخى الإرادى، كما أن مفهومى "نفى النفى و الجدة" يبرزان المعنى الحقيقى للتوجه الفلسفى للفكرين (الماركسى والراجماتى)، هنا بالتحديد سنقوم بالربط مابين هذين المفهومين وبين التغيرات الحاصلة فى المجتمع من ناحية التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية، ومن ناحية المظهر المعمارى والعمرانى للمدن العربية، وسنتعرف على مدى ملائمة هذين المفهومين لحالات التغيير السابقة ذكرها.

3. 4. العلاقة بين الماضى والحاضر

إن ما يربط الماضى بالحاضر فى مدننا العربية عدة روابط، من أميزها وأكثرها علاقة بالعمارة والعمران الفكر والمعتقدات كالسلوكيات والعلاقات الاجتماعية والأعراف والتقاليد التى هى بمثابة فكر مجتمعى اعتدنا على استمراريته وتوارثه، وأيضاً المظهر المعمارى والعمرانى، وهذه الروابط تعتبر مؤثراً مهماً لأنها تتحكم فى قواعد السلوك الاجتماعى الخاص ببعض مجتماعاتنا العربية، فقد كان التركيز فى مجال قواعد السلوك المطبقة على المدينة العربية موجهاً نحو ضبط السلوك الاجتماعى أكثر منه نحو فرض تنظيمات عمرانية محددة، فالمبادئ التى تحكم مسألة الخصوصية(على سبيل المثال) تكمن فى منع الإشراف والتطّفل على خصوصية الجوار وليس فى منع الفتحات فى الحائط[23]، وإن اتخذت هذه الفتحات موقعاً لا يمس خصوصية الجار أمكن السماح بها ليستفيد الطرفين، ولقد كان التشريع الإسلامى(الكتاب والسنة) هو المحدد الرئيسى للوجه المعمارى أو العمرانى لمدننا العربية فى العصور الأولى لسلفنا الصالح، ثم تحور هذا المفهوم الفكرى فى وقت ليس ببعيد عن حاضرنا لتصبح تلك التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات هى المؤثر الأقوى فى تكوين معالم العمارة

(21) بول ، ف ، بولر ، الحرية والقدر فى الفكر الامريكى ، ترجمة اسماعيل كشميرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص 22.
(22) Architecture in North America.
(23) الهذلول، محمد صالح، المدينة العربية الإسلامية "أثر التشريع فى البيئة العمرانية"، دار نهال للتصميم والطباعة، الرياض، جمادى الثانية 1413 هجريه، ص 120.

والعمران للمدينة العربية، وفى وقتنا الحاضر أصبحت القوانين والأنظمة العمرانية الدخيلة إن صح التعبير هى التى تحكم الوجه المعمارى والعمرانى اليوم فى مدننا ومجتمعاتنا العربية. الشكل رقم(3).

الشكل رقم (3): تأثير التشريع فى حجم الفتحات والبروزات وموضعها واحترام الخصوصية فى مساكن المدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية[24].

إن مصطلحات (التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية) تتضمن إيحاءً قوياً لمعنى المحاكاة خاصة للفكر والمعتقد فى الماضى والحاضر، كما أنها تستند على فكر أصيل قد تقويه أو تضعفه عبر الزمن ثقافة واقعية متغيرة، فهل يمكننا القول بأن هذه المصطلحات بفكرها عرضة للتغيير؟، وإذا ماتغيرت هل تبقى الاستمرارية الفكرية لأصولها؟، وهل يمكن أن نجد لها استمرارية فعلية على أرض الواقع؟، هذه التساؤلات نضعها مدخلاً لموضوع الارتباط بالماضى أو الابتعاد عنه فى العمارة والعمران، وأيضاً لأن تلك التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات كثيراً ماكانت من العوامل الفاعلة فى تكوين البيئة المعمارية والعمرانية فى مجتمعاتنا العربية بالذات، والتى تعانى من حين لآخر من ظاهرة الثبات على نسق أو نظام غالباً ما يقل فيه العطاء، والذى يؤدى بنا إلى التقليد والاستنساخ لما هو موجود بالخارج والذى يرمى بنا فى حالتى الضياع والاغتراب.

3.4.1. بعض الرؤى حول علاقة الماضى بالحاضر

يقول "بوكوك: إن الوعى بالماضى فى حقيقته إنما هو وعى المجتمع باستمراريته"، ويرى أيضاً أن تركيب المجتمع نفسه هو العامل الوحيد الأكثر أهمية فى استمراريته من الماضى إلى الحاضر[25]، وقد اعتقد بأن الاستمرارية مع الماضى فكرياً تنشأ من العمليات الناتجة عن المؤسسات الاجتماعية فى المجتمع والتى تستند على القوانين والتشريعات المعمول بها، وبالتالى فأنه ينادى بدراسة تلك القوانين والتشريعات لنستطيع الاستمرار على نهجها حاضراً ومستقبلاً.

ونجد أن هناك اتفاق غير صريح ما بين هذه الرؤيا وتلك التى ينادى بها "فرحات الطاشكندى فيقول: بما أننا مسلمون وملتزمون بالشريعة الإسلامية التى هى مصدر الثوابت، فقد لانحتاج إلى التغيرات التاريخية الجذرية والسريعة والمفاجئة كالتى حصلت للعمارة الغربية من بعد عصر النهضة، ومادام المعمارى العربى يخضع أعماله لمتطلبات الشريعة الإسلامية فهو لايزال فى استمرارية؛ والانقطاع الذى حصل فى الشكل الخارجى نتيجة استخدام مواد بناء جديدة وتقنيات جديدة كان لابد له أن يحصل وهى من سنن الحياة، والإسلام لم يتصادم يوماً مع تقدم العلوم أو استعمال التقنية المفيدة أو مواد البناء الحديثة، فتقنية البناء والمواد والزخرفة وطرق الإنشاء لا تتمذهب بمذهب خاص ولا تتلبس بجنسية دون غيرها فهى أمور خاملة "NEUTRAL"[26]، والاتفاق مابين الرؤيتين يكمن فى الرجوع للتشريع والقوانين، فيراه "بوكوك" فى قوانين وتشريعات المؤسسات الاجتماعية؛ ويراه "الطاشكندى" فى احترام الثوابت للشريعة الإسلامية(الكتاب والسنة) التى يستثنيها لقدسيتها عكس المتغيرات التى ذكرها والتى قد نضيف أليها قوانين وتشريعات المؤسسات الاجتماعية التى يرجع إليها "بوكوك" نفسه فى الربط مابين الماضى والحاضر. وعموماً فإن الاختلاف فى الرؤيتين يعكس طبيعة المجتمعات البشرية التى تختلف بمكوناتها ومعتقداتها الفكرية.

---

(24) المرجع السابق، ص ص 84-88.

(25) J.G.A. Pocock, "The origins of Study of the past: Comparative Approch," in Comparative Studies in Society and History, 1961, pp. 209-246.

(26) الطاشخندى، فرحات خورشيد، تطور الاتجاهات المعمارية، المؤتمر المعمارى الدولى الرابع، كلية الهندسة، جامعة أسيوط 2000م.

إن الغاية من تلك الرؤى فى العمارة والعمران هى الوصول للتطور والتقدم فى المظهر المعمارى أو العمرانى، مع مراعاة الاستمرارية مع الماضى فى مبدأ أو معتقد (كالثوابت فى مجتماعاتنا العربية) الذى ينفى تلك الجدة المطلقة التى أشرنا أليها فى الفكر البراجماتى والتى ترى أن التطور هو بالضرورة تدخل جديد يأتى من الخارج لغرض التغيير، وهذا ماعبر عنه "ببر" بقوله: تنظيف الخيمة وإفراغها من كل محتوياتها القديمة"[27]، واللجوء إلى استيراد أكبر ما يمكن من الأفكار والمواد من الحضارات المسلّم بتفوقها ورفعة مكانتها.

3. 4. 2. مكونات الماضى والحاضر ما بين التغيير وعدمه

إن تركيبة المجتمعات العربية قديماً كانت تتأثر بعدة روافد فكرية كتقاليد أفرادها وعلاقاتها الاجتماعية وتشريعاتها، فهى المتحكم الرئيسى فى مدى استمراريتها بماضيها بشتى مجالاته، إلا أن تلك الروافد فى جانبها المتصل بالعمارة والعمران لم تكن ملتزمة بنسق محدد بل كانت عبارة عن عادات متعارف عليها وتعاملات نسقية التواتر فى الممارسة والحياة اليومية، ولم يكن اللجوء لتحليلها وتوثيقها ضرورياً إلا عند ظهور شك فى قدرتها وصلاحيتها، وذلك إما بسبب حدوث تغير أو نشوء تعارض اجتماعى[28].

وفى مجال العمارة والعمران قد تفرض أحياناً تغيرات تلك الراوفد المذكورة سابقاً مبادئ وأساليب جديدة فى المجتمع بدلاً عن تلك التى كانت تتسيد الساحة لتكون النتيجة قبولا بالتغيير لأنماط المنشأت فى البيئة العمرانية، خاصة وإن استجد استخدام مواد وتقنيات وأساليب جديدة فى البناء والعمران، وبالرغم من تعرض تلك الروافد بصفة مستمرة من فترة لأخرى للتقويم والنقد والجدلية وربما للتغيير والتطور؛ إلا أن الاحساس باستمراريتها وتذوق أصالتها يظل ماثلاً للعيان بنسبية تختلف من مجتمع لآخر فى بلداننا العربية فى وقتنا الراهن.

لو رجعنا قليلاً لعمارة الغرب كسرد سريع، نجد أن حقبة الرجوع الأول للتراث ما بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر(عصر النهضة)، تميزت بالتأثر بالمفاهيم الكلاسيكية القديمة وبازدهار الأدب والفن الذى كان كنتيجة لاختراع الطباعة وترجمة الأعمال الكلاسيكية، كدراسة "شوازى" Choisy و"دونالدسون" Donaldson للفراغات التى تحويها العمارة الرومانية[29]، فكانت العودة للتراث فكرياً وفقدان الثقة بالكنيسة لفسادها، وفيما بعد أُختراع البارود الذى أثر على مجرى الحروب الذى أنتج استقلال الدول الغربية، وقد شهدت هذه الفترة انقطاع أو فجوة فى استمرارية نمو عمارة أوروبا، إلى أن ظهرت الواجهات الرومانية مع الإبقاء على طريقة البناء القوطية، فكان الرجوع للشكل الرومانى فقط(المظهر)، وكما يقول "فلتشر":"العودة إلى الشكل الكلاسيكى مع أن الحياة تغيرت(أى طريقة معيشة الإنسان تغيرت)[30]، وبعد ذلك ومع انتهاء سيطرة الكنيسة واضطهادها للعلماء والمفكرين جاء عصر التنوير الأوروبى، حيث ظهر مشروع الحداثة المبنى على العقلانية وتبنى الجانب المادى الذى طوره فلاسفة الفكر والذى أثر فيما بعد على النقد والأدب والفن والفلسفة التى انعكست كلها على جميع مجالات الحياة حتى وصلت للعمارة التى بدورها جسدت تلك الأفكار على حساب الجانب الروحى الذى كان سائداً فيما مضى، ولاحقاً ظهرت العديد من الحركات الفكرية التى تدعو إلى نبذ التراث والتحرر من الماضى.الشكل رقم(4).

الشكل رقم (4): الرجوع الأول للتراث فى عصر النهضة[31].

(27) Karl Popper,"Towards a Rational Therory of Tradition" in his Comjecturees and Refuta-tions: the Growth of Scientific Knowledge, New York: Harper and Row, p.125, 1988.

(28) الهذلول، محمد صالح، المدينة العربية الإسلامية "أثر التشريع فى البيئة العمرانية"، ص 119.

(29) حسن، نوبى محمد، الفراغ المعمارى من الحداثة إلى التفكيك، مجلة العلوم الهندسية، كلية الهندسة، جامعة أسيوط المجلد 35، العدد 3، (2007).

(30) Banister Fletcher, A History of Architecture, Butterworth, 1987.

(31) Gelernter,M.Source of Architecture form.

ومع ظهور مدرسة الباهاوس ترسخت عمارة الحداثة، التى أوجدت ثورة واضحة فى محددات الفراغ وهيئته عما كان سائداً فى عصر النهضة والباروك وحتى العمارة الكلاسيكية، فقد اتجهت عمارة الحداثة بشكل كبير نحو تخليص الفراغ من كل ما هو زائد عن الحاجة[32]. وبعد ست سنوات من بدايتها بدأت حقبة قطع الصلة مع الماضى كما يقول "نيقولاس فوكس ويير"[33]، إلا أن ظهور حركات الرواد AVANT GARDE وقطع الصلة بالطرق التقليدية وتطور الفن الجديث(الرمزية SYBOLISM- والفوقية FAUVISM- والتكعيبية CUBISM- والدادية DADA-ISM- والسريالية SURREALISM- والمستقبلية FUTURISM) وهى حركات تدعوا لنبذ التراث والتحرر من الماضى[34]؛ أدى إلى التغيير الكبير فى الفكر والمعتقدات والتحرر الزائد الذى انعكس على عمارة الحداثة التى أصبحت لا ترضى أذواق الأفراد ولا تشبع رغباتهم وبالتالى أخفقت فى الجوانب البيئة والاجتماعية[35]، ومع الممارسة الطويلة للعمارة الحديثة والتمادى فى التبسيط ظهرت الأراء المعاكسة لذلك، فيقول "فنتورى":" أن التمادى فى التبسيط يعنى عمارة تافهة"، وكما يقول "كولن دايفز":"أن فشل عمارة الحداثة هو نتيجة للأشكال الفجة والتى بدون قاعدة والتى استعملت بكثرة فى الواجهات"[36]. الشكل رقم (5).

الشكل رقم (5): البساطة المتناهية فى عمارة الحداثة، بعض من أعمال المعمارى ميس فان درروه[37].

كل هذا أدى إلى البحث عن المعنى فى المبنى، وبعد ربع من القرن رجع الرأى الذى يدعو للرجوع للماضى والاقتباس والنقل من التراث فكانت عمارة ما بعد الحداثة، وعموماً فإن عمارة عصر النهضة وعمارة الحداثة وما بعد الحداثة كلها حركات فكرية فى أصلها لها مبدأ تقوم عليه، حتى وإن قبلنا بالمقارنة فالحركة الجديدة التى تقوم الآن فى الغرب والتى تعرف "بالعمارة التفكيكية أو التشريحية" تأثرت بأفكار الفيلسوف الفرنسى "دريدا" والتى قلبت موازين الجمال رأساً على عقب. وبعيداً عن التقييم المتسرع لكفاءة وأداء العمارة التفكيكية "Deconstructivism" نجد أنه أوجد له مكان فى الوجود المعمارى المعاصر، ربما لأنه ينطوى على قوة شحذ هائلة للعقل والفكر وهو ما يحقق للمشاهد فى وقتنا الراهن لذة ومتعة عظيمة فى تحقيق نفسه كذات مفكرة ومبدعة[38]، وأيضاً لأن هذا الإتجاه هو نبت العصر الحالى أو "الجدة الحقيقية" لغياب المرجعية الفكرية المشابهة له فى جذور تاريخ الفكر المعمارى، الشكل رقم(6).

إن السبب فى كثرة التغيرات الفكرية التى حصلت فى أوروبا بعد الثورة الصناعية وبعد فصل الدين عن الدولة، كان تغيير الثوابت والتى أصبحت من المتغيرات، وهذا ما يقود الغرب اليوم إلى التفكير فى التغيير دائماً وهذا ما انعكس على العمارة، فيقول "فيلب جونسون":"على كل حال هناك عدة اتجاهات متناقضة فى جيلنا المتغير السريع وفى العمارة نجد الكلاسيكية الصادقة والحداثة الصارمة وكل أنواع الدرجات بينها صحيحة بالتساوى، ولم يظهر شئ مقنع بعد وربما لا يظهر، وما لم يوجد أو يظهر دين جديد أو مجموعة معتقدات على نطاق العالم فربما لا يمكن تشكيل علم الجمال" [39]، وهنا نستخلص النظرة الفكرية للعالم

(32) حسن، نوبى محمد، الفراغ المعمارى من الحداثة إلى التفكيك، المرجع السابق.
(33) Nicholas Fox, Architecture Dicgest, Dec, 1991.
(34) الطاشخندى، فرحات خورشيد، تطور الاتجاهات المعمارية، المرجع السابق.
(35) حسن، نوبى محمد، الفراغ المعمارى من الحداثة إلى التفكيك، المرجع السابق.
(36) Colin Davis, The Architecture Journal, May 1992.
(37) حسن، نوبى محمد، الفراغ المعمارى من الحداثة إلى التفكيك، مجلة العلوم الهندسية، كلية الهندسة، جامعة أسيوط، المجلد 35، العدد 3، مايو 2007م.
(38) الكردى،محمد على، دريدا والحوار المستحيل، جريدة الاهرام القاهرة، ب.ت.
(40) Philip Jonson, Deconstructivist Architecture, MMA, NY. 1988.

الغربى والتى تتجسد فى فكرة تعاقب حالتى الاستمرارية والانقطاع طالما كان التغيير حتمى الوقوع. هذا عن عمارة الغرب أما هنا فى مجتماعاتنا العربية فسوف نرى مدى تأثير أولاً عدم التغيير فى الفكر والمعتقدات وتأثيرهما على المظهر المعمارى والعمرانى للمدينة العربية واستمراريتها فكرياً، وثانياً التغيير فى الفكر والمعتقدات وتأثيرهما على المظهر المعمارى والعمرانى للمدينة العربية قديماً وحديثاً.

الشكل رقم (6): التعقيد فى التشكيل بعض من أعمال فرانك جيرى[40].

3.4.2.1. الاستمرارية الفكرية لمكونات الماضى فى الحاضر

إن التنوع كان ماثلاً فى أنماط وأشكال المساكن القديمة فى المدينة المنورة فى المملكة العربية السعودية، وكان النمط المحلى السائد هو المسكن ذو الفناء الذى يعتبر المسكن التقليدى النموذجى فى المدينة العربية الإسلامية الذى يراعى الفكر المجتمعى بما يحمل من تقاليد وعلاقات اجتماعية وأعراف للمجتمع السعودى، وينذر أن ترتفع هذه المساكن إلى طابقين ثم ظهر فى الأزمنة المتأخرة التالية نمطان أخران هما المسكن ذو القاعة ويرتفع ما بين طابقين إلى ثلاثة طوابق والمسكن ذو المشربية ويرتفع ما بين الأربعة والخمسة طوابق فى المتوسط وهما أيضاً من الأنماط المستندة على مراعاة الفكر والمعتقدات كالتقاليد والعلاقات الاجتماعية الأصيلة، وقد كانت كل هذه الأنواع تحفظ حق الخصوصية للجوار وتتوزع فى مخطط المدينة القديم على شكل حارات، وينذر أن توجد هذه الأنواع بارتفاعاتها المختلفة معاً فى حارة واحدة، وبالرغم من التفاوت بينها فى العناصر المعمارية المستخدمة فقد اتفقت جميعها فى التقيد بالقواعد والقيم والتقاليد المرعية[41].

وبالرغم من أنها بنيت على فترات زمنية مختلفة؛ إلا أن الفكر السائد فى المجتمع واحترامه لتقاليده وعلاقاته الاجتماعية وحتى تشريعانه العمرانية جعل من التغيير الحاصل فى تشكيل المبانى ممكناً ومقبولاً لأنه لا يخل بالمتعارف عليه فكراً ومعتقداً، وهنا نجد أن الاستمرارية تحققت مع الماضى فكرياً وانتجت نموذجاً يستند على القديم لكنه متطور. الشكل رقم(7).

(39) حسن، نوبى محمد، الفراغ المعمارى من الحداثة إلى التفكيك، المرجع السابق.
(41) الهذلول، محمد صالح، المدينة العربية الإسلامية "أثر التشريع فى البيئة العمرانية"، ص ص 97- 100

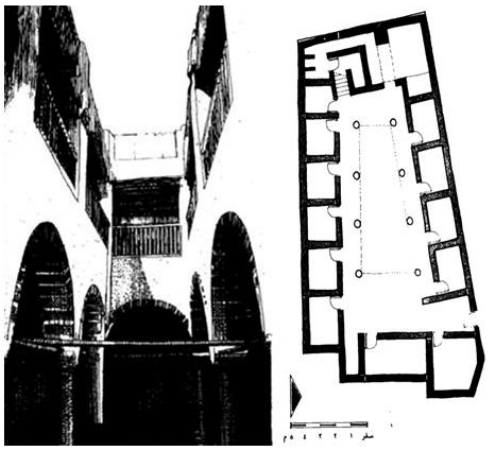

الشكل رقم (7): المنزل ذو الفناء بالمدينة المنورة[42].

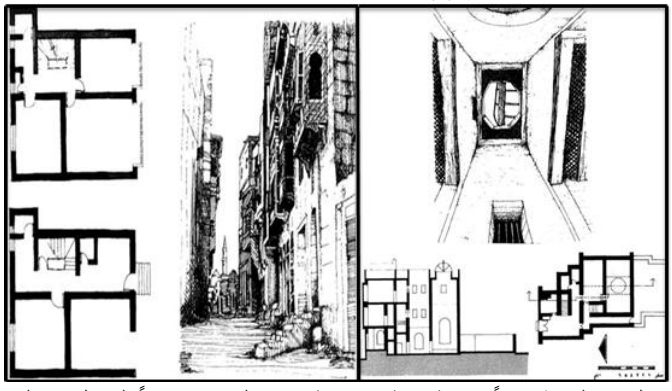

الشكل رقم (8): المنزل ذو القاعة يميناً(مسقط وقطاع ومنظور داخلى)، ويساراً المنزل ذو المشربية(فى الأسفل مسقط الطابق الأرضى، وفى الأعلى مسقط الطابق الثالث الذى يختلف عن الثانى والرابع اختلافات طفيفة، ومنظور للمنزل)[43].

3.4.2.2. الانقطاع الفكرى لمكونات الماضى عن الحاضر

إن الفكر والمعتقدات فى حاضرنا المعاش بتقاليده وعلاقاته الاجتماعية وحتى بتشريعاته قد تغير كثيراً عن الماضى، ففى بعض المجتمعات العربية الآن أصبحت التقاليد مهملة والعلاقات الاجتماعية يسودها الانعزال بفعل تأثير البيئة المعمارية العمرانية التى نقلت من الخارج دون وعى لتكون قيداً ومناخاً يعج بالاغتراب والتى هى نتاج التغيير لتلك التشريعات الدخيلة على مجتماعاتنا العربية.

مع استجلاب النظم والتشريعات العمرانية المعاصرة للمدن العربية وزرعها ضمن بيئات ثقافية وعمرانية مغايرة لها، والتى هى قابلة للتطبيق فى أى مكان من العالم وهذا ما يجعلها غير مراعية لتلك الخصوصيات التى تميز مجتمعاً عن آخر، أصبحت هى المقنن الوحيد للبيئة المعمارية والعمرانية لما تفرضه من اشتراطات وقوانين لاتسمح بإرساء علاقة تبادلية توافقية بين أعراف الأشكال القديمة الموروثة أو حتى بالتنوع الواقعى للأشكال الجديدة والتكوينات المشكلة للمدينة، وبالمقارنة بالحالة الأولى التى شاهدنا فيها الثلاثة أنماط من المساكن فى المدينة المنورة التى خضعت للتغيير فى الشكل مع بقاء التأثر بالفكر والمعتقدات بما تحمله من تقاليد وعلاقات اجتماعية وتشريعات؛ نجد فى المقابل أن التشريعات الجديدة فى مدينة الرياض فى المملكة العربية السعودية لم تتح شروط ارتدادات المساكن فيها المجال إلا لنمط سكنى واحد بعينه يتعذر التحول عنه وهو نمط

(42) المرجع السابق، ص 98.
(43) الهذلول، محمد صالح، المدينة العربية الإسلامية "أثر التشريع فى البيئة العمرانية"، ص ص 99-100.

"الفيلا" [44]، وبالرغم من أن المجتمع السعودى قد يغلب عليه التقليدية الاجتماعية إلا أن التشريعات هى التى تغيرت وأثرت فى المظهر المعمارى والعمرانى للمدينة، ليتضح لنا أن التغيير أحيانا يكون فى مكون واحد(كالتشريع بفكره الجديد) مع بقاء المكونات الأخرى(التقاليد والعلاقات الاجتماعية)، وقد يكون مؤثراً سيئاً لو استمر فى التغير دون وعى وربط لعلاقاته بباقى المكونات الأخرى فى المجتمع. الشكل رقم(9، 9-أ).

نصل إلى نتيجة فى هذا الجانب توضح أن الانقطاع الذى حدث فى التشريع بعد تغيره عن التشريع القديم أدى إلى فرض تشكيل معمارى قد لا يواكب الفكر المجتمعى بتقاليده وعلاقاته الاجتماعية فى دولنا العربية مع مراعاة درجة الاختلاف فيما بينها على مستوى تغيرها، فإذا كانت التغيرات الفكرية فى التقاليد والعلاقات الاجتماعية غير مستمرة مع الماضى بدرجة كبيرة؛ كان التأقلم مع الانقطاع فى التشريع ممكناً ومقبولاً، وإن كان العكس وقع أفراد المجتمع فى هوة التغريب وعدم الإنتماء للمكان.

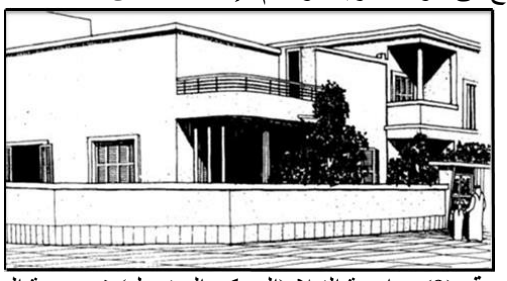

الشكل رقم (9): واجهة الفيلا (المسكن المنفصل) فى مدينة الرياض[45] .

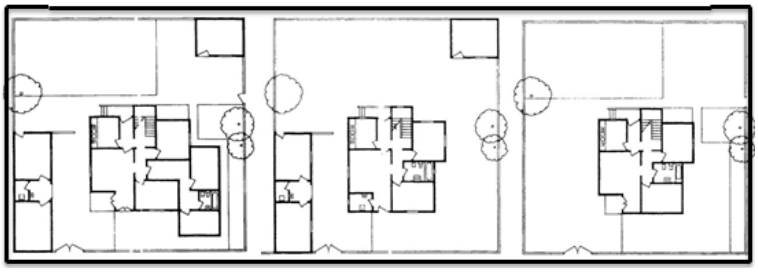

الشكل رقم (9-أ): التحوير فى المسقط الأفقى للفيلا ليتلائم مع الخصوصية وفق التشريع الجديد للمناطق الجديدة فى المخطط[46].

3. 4. 3. التغيير وعدم التغيير لمكونات الماضى والحاضر

من خلال السرد الماضى يمكننا أن نستخلص حالتى التغيير وعدم التغيير لمكونات الماضى والتى تبقى لها صور فى الحاضر وإن كانت بوجه آخر، هذه الصور التى هى نتاج تأثير الفكر والمعتقدات المتغيرة كالتقاليد والعلاقات الاجتماعية وحتى التشريعات العمرانية على المظهر المعمارى والعمرانى للمدينة العربية سواء استمر الموروث الفكرى أو تغير، ولكى نصل إلى حل أو رؤيا تمكننا من التعامل مع ذلك التغيير باعتباره واقع سيستمر مستقبلاً قد يحتاج لاستمرارية فكرية مع جذوره أو انقطاع لابد أن يتماشى مع حاضره المختلف؛ سنقوم بتوضيح الحالتين وما يستوجب عمله كرد فعل يتماشى مع حدوثهما أو تعاقبهما على الساحة.

- فى حالة عدم التغيير فى الفكر والمعتقدات(التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية) أو استمرارها الفكرى حتى ولو بتغيرات بطيئة وسطحية؛ سيستوجب ذلك تطور نتاجها(المظهر المعمارى أوالعمرانى) بما يواكب جديدها فى الداخل والخارج وبما يضمن عدم الوقوع فى حالة الثبات على ساحاتنا الذى ينتهى فيه العطاء نتيجة الوقوف على نتاج السلف.

(44) المرجع السابق، ص 232.
(45) المرجع السابق، ص 151.
(46)- الهذلول، محمد صالح، المدينة العربية الإسلامية "أثر التشريع فى البيئة العمرانية"، المرجع السابق، ص 153.

- فى حالة التغيير فى الفكر والمعتقدات(التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية) وانقطاعها الفكرى؛ سيستوجب ذلك مواكبة هذا التغيير فى الداخل والخارج تحت احترام قاعدة الثوابت والتكيف مع المتغيرات كنتيجة للواقع المفروض لكى لانقع فى إشكالية الثوابت التى تغيرت فى العمارة الغربية التى ذكرنا سابقاً.

لابد هنا أن نوضح شيئاً مهم فى الحالة الأولى وهو أن حالة الثبات المستمر الذى قد ينتهى فيه العطاء الجديد قد يتطلب حالة انقطاع بالرغم من الاستمرارية الفكرية التقليدية والتشريعية مع الماضى، فيكون الانقطاع بتغيير فى التشريع قد يكون خارجياً لابد من دراسته ليلائم الساحة فى الداخل، أو بجديد إبداعى ومبتكر يربط الماضى بالحاضر ويتصور المستقبل وهذا هو الأفضل إن تحقق فهو نبت واقعنا الأصيل.

3. 4. 4. ربط الحالتين السابقتين بالفكرين الماركسى والبراجماتى

قبل الربط ما بين حالتى التغيير وعدم التغيير لمكونات الماضى التى تؤثر فى حاضر ومستقبل العمارة والعمران؛ وبين الفكر الماركسى والبراجماتى، لابد أن نتفق على أن التغيير أصبح سمة العصر والذى قد يكون جديداً أو عوداً لقديم، وهو أمر لامناص منه بفعل التطور فى الخارج المحيط بنا والذى أصبح المورد والمتحكم بالسلع المختلفة فى كافة مجالات الحياة والعمارة أحداها، وقد طال هذا التغيير الفكر المجتمعى بعاداته وتقاليده وعلاقات الاجتماعية وحتى تشريعاته على اختلاف تخصصاتها فى مجتماعاتنا العربية.

إن العلاقة الرابطة ما بين مستوى الفكر والمعتقدات والثقافة فى مجتمعاتنا وذلك المظهر المعمارى والعمرانى لمدننا العربية تشوبها الحيرة التى تتمحور فى سؤال لطالما طرح نفسه خاصة عندما نصل إلى أن العلاقة تبادلية التأثير وهو: "من المؤثر فمن؟"، فهل باتت مفردات البيئة المعمارية العمرانية المستجلبة هى السبب فى تلك التغييرات فى التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات أم العكس!، هنا بالتحديد ربما أرجح وبنسبية أعلى تأثير جزئية التشريع المنظم للبيئة المعمارية العمرانية، خاصة بعد تلك التغييرات الجوهرية فى قوانينه والتى انقطعت صلتها الفكرية السابقة والتى طالت المظهر المعمارى والعمرانى لمدننا العربية، وهذا ما أدى بدوره إلى انعكاس تأثير المنتج الجديد المواكب لتلك التشريعات على الأفراد بجميع تخصصاتهم، وأدى إلى حالات التغيير فى الفكر والمعتقد والثقافة. طالما سلمنا بإن التغيير من سنن الحياة سواء فى الداخل أو الخارج لابد لنا من الرجوع لتعاقب حالتى الاستمرارية والانقطاع لأنهما سيوفران حلولاً جيدة للواقع الذى قد يتماشى مع أحد مفاهمهما من حين لآخر.

3.4.4.1. ربط الفكر الماركسى (الاستمرارية) بالتغيير فى العمارة والعمران

إن اللجوء إلى الاستمرارية التى تنادى بها الماركسية والتى تتطلب حالة "نفى النفى" تكون مجدية فى تلك المجتمعات ذات الصبغة التقليدية المتصلة فكرياً بأصولها، فإذا ما افترضنا بقاء الفكر المجتمعى والمعتقدات بما يشملان فى حالة اتصال بالموروث حتى ولو بتغيرات سطحية غير جوهرية؛ فأنه يدعونا للاستقصاء عن مدى انعكاسهما فكرياً على تطور المظهر المعمارى والعمرانى الملائم لهما، فإذا كان التطور يسير فى وثيرة معقولة عبر الزمن؛ إستوجبت الاستمرارية التى تحوى ضمنياً مفهوم نفى النفى، وإن كان العكس أى بطء فى التطور وأحياناً الثبات بلا عطاء متجدد؛ إستوجب الانقطاع بغض النظر عن تلك الاستمرارية الفكرية التقليدية، ويكون الانقطاع فى جزئية التشريع بشرط دراسة الجديد المحلى أو المستجلب وليس استنساخه ليلائم الحاضر ويخدم المستقبل، وجزئية التشريع هى الوحيدة التى تقبل التغيير فى مجتماعاتنا العربية فى حالة عدم تغيير فكرها ومعتقداتها، الجدول رقم(1).

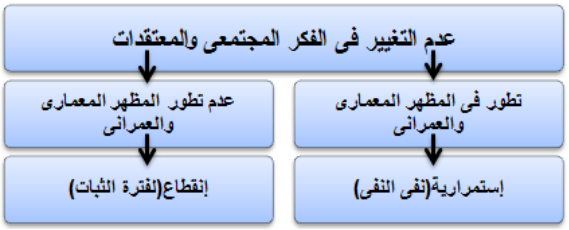

المصدر: الباحث.

3. 4. 4. 2. ربط الفكر البراجماتى (الانقطاع) بالتغيير فى العمارة والعمران

مع التغيير الحاصل الآن فى مجتماعاتنا العربية بمكوناتها المختلفة يجعلنا نقف قليلاً أمام اتجاه ذلك التغيير، ومن ناحية اندفاعه نحو الأفضل أو الأسوء، فما نراه اليوم سواء على مستوى الفكر المجتمعى

والمعتقدات كالتقاليده والعلاقاته الاجتماعية وحتى التشريعات المختلفة أو على مستوى المنتج على الساحة المعمارية والعمرانية؛ يجعلنا نعى خطورة الموقف الذى تعانيه ساحاتنا العربية.

لذا كان لابد من الاستجابة لحالة الانقطاع لنتماشى مع ما يفرضه الواقع وما وصلنا إليه فى وقتنا الراهن، ولعل السؤال الذى يفرض نفسه ويعلل قولنا الماضى وهو:"هل ترجع أفكارنا ومعتقداتنا وثقافة سلفنا للظهور فى واقعنا المعاش؟!؛ أم أن هذه الرؤيا تعتبر ضرباً من الخيال وسط حاضر تغيرت فيه الكثير من المعطيات والتى أصبحت كنفق إدخلنا فيه ولا نستطيع سوى المضى فيه دون وعى لنهايته.

لابد من القبول بمفهوم الانقطاع فى وقتنا الحاضر، فمع التغيير فى الفكر المجتمعى لابد من تغيير فى المظهر المعمارى والعمرانى لكى نستطيع مواكبة التغيير فى الخارج المتسارع الخطى، ولاننسى هنا بالتحديد احترام معتقد مقدس فى عمارتنا العربية وهو عد المساس بالثوابت(الكتاب والسنة) الذى ينافى مفهوم الجدة المطلقة التى تأتى كنتيجة للانقطاع فى الفكر الراجماتى، أما التكيف مع المتغيرات فهو صلب موضوع الانقطاع إن لم يكن الانقطاع نفسه.

إن المشكلة الحقيقية التى تواجهنا هنا وبالذات فى حالة التغيير فى الفكر المجتمعى والمعتقدات فى مجتماعاتنا العربية؛ أن الانقطاع يجعلنا فى وضعية المتسابق مع خصم يفوقنا قوة(التغييرفى الخارج)، وبالتالى سيكون الزمن هو العامل الذى لابد من دراسته جيداً وفق رؤية تستوجب أن يكون لحالة الانقطاع زمن كافى لابأس به، بحيث قد نعده استمرارية للفكر الجديد المطروح حالياً، لكى لا نقع فى فخ التغييرات السريعة المتتالية التى تأتى أو تفرض جبرياً من الخارج، ومع هذه الاستمرارية يمكننا التعامل مع نجاحنا أو فشلنا، ففشلنا إن حدث لابد أن يعقبه انقطاع ربما يكون للماضى أو لجديد آخر، الجدول رقم(2).

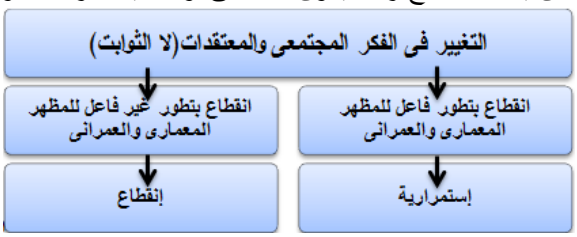

المصدر: الباحث.

4. الخلاصة

- يعتمد الفكر الماركسى على المنهج التاريخى، فيرى أن تاريخ العلم لا تنقطع الصلة بين ماضيه وحاضره جذرياً، بل دائما هناك استمرارية مابين الماضى والحاضر بقطائع تصويبية تحاول حل المشكلات التى عجزت النظريات القديمة عن حلها، فيرد كل إكتشاف علمى جديد إلى سابق فى الماضى، وهنا نلاحظ وجود الاستمرارية التاريخية. كما انطلق الفكر الماركسى من تلك المبادئ الفكرية السابقة له، والتى ترى بأن التطور يتم بشكل مثلث جدلى أطرافه(الماضى– الحاضر– المركب منهما)، إلا أنه كان يرى تناقضاً معها حيث كان الفكر فى السابق يرى أن أطراف المثلث متطابقة وهذا ما أُطلق عليه(وحدة الأضداد)، حيث أنها من منبع واحد وهو الأصل للفكرة المستعارة من الماضى، فلابد أن يتجسد الماضى دائماً وأبداً، بينما يرى الفكر الماركسى أن الأطراف غير متطابقة تطابقاً مطلقاً ولكنها موجودة وبينها صراع مستمر...، وقد يحدث تغلب طرف على آخر وهذا هو ما يعرف بى(حل التناقض) وهو ما يوصلنا إلى الاستفادة من مميزات القديم والابتعاد عن مساوءه. إن الماركسية فى حقيقة الأمر لاتؤمن بالجدة المطلقة؛ إذ أنها تؤكد أن نفيها للماضى ليس مطلقاً لأن القديم يظل موجوداً فى الجديد فهو الوالد له، ثم إن الجديد لايعدو كونه إعادة دمج وتركيب لعناصر قديمة.
- يستبعد المنهج البراجماتى الرجوع للتاريخ فهو منهج إرادى لاتاريخى يعتمد على المعنى الحقيقى لأى فكرة أو نظرية من خلال الممارسة والنتائج العملية فى المستقبل، وبالتالى فإن قيمة الأفكار والنظريات تتحدد فى المستقبل وتستمد قوتها منه وليس من الماضى وهذا هو الجديد فى الفلسفة البراجماتية، والمنهج البراجماتى لا يهتم بمصدر الأفكار ولا بكيفية ظهورها وإنما يهتم بنتائجها العملية المؤثرة على

سلوكنا وحياتنا، فالفلسفات التى تكتفى بتحليل مكونات العالم ولاتعمل على تغيره وتكتفى بالنظر للماضى بدلاً من المستقبل لايوجد للتجديد والإبتكار فيها موطئ قدم، عكس البراجماتية الذى تتنبئ بالمستقبل من خلال تهذيب الحاضر وتهيئته مستبعدة العودة للماضى. وينظر الفكر البراجماتى إلى الموروث القديم من زاوية التغيير لا الاستمرار، فالتراكم الفكرى والثقافى بقدر مايساعد على إغناء الوعى، يعمل أيضا على إعاقة تقدمه إن لم يحدث فيه تغيراً كيفياً وجذرياً، كما إن الاستمرارية دائماً وأبداً خطأ فالتاريخ ليس حلقات مترابطة بحيث تفضى كل منها للأخرى وهذا ينطبق على الفكر والعلم والثقافة. وكما أن استمرار وتواصل تاريخ الفكر البشرى والحضارة البشرية حقيقة فعلية إلا أنه لابد من التركيز على مراحل التقطع والانفصال التى كانت دائماً ماتأتى بالإبداع والتجديد.

- إن قانون "نفى النفى" لدى الفلسفة الماركسية يقصد به "نفى القطيعة المطلقة" وذلك لأن الماضى يفنى لكن يبقى الأفضل منه، فالماركسية تؤكد النفى أى القطيعة مع الماضى غير المطلقة، لأنها بذلك ستكون مؤيدة للنفى العدمى "المجرد" الذى يعتبر عملاً مضاداً للتطور والتقدم، فالنفى الجدلى للماضى غير المطلق يعنى الهدم والبناء إنطلاقاً من أسس موجودة وليس التوقف والبدء من جديد، إن مفهوم "الجدةالمطلقة" الذى وضعه الفكر البراجماتى، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدفاع عن الحرية الإنسانية، فالجدة نتاج فعل الإرادة الحرة، إلا أنه يصطدم بالمبدأ الفكرى الذى لا خلاف عليه فى عمارتنا العربية والذى يقول "إذا تحققت الثوابت(الكتاب والسنة) فالتجديد فى المتغيرات لاضرر فيه"، فالجدة المطلقة قد تكون مثار جدل فى قضايا الفكر عكس العلم التجريدى المبنى على المنطق الرياضى. سنحاول لاحقاً معرفة مدى ملائمة هذا المفهوم لحالات التغيير التى تحدث فى المجتمع خاصة فى العلاقة ما بين الفكر والمعتقدات(التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية) مع المظهر المعمارى والعمرانى للمدينة العربية.
- إن مصطلحات (التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات العمرانية) تتضمن إيحاءً قوياً لمعنى المحاكاة خاصة للفكر والمعتقد فى الماضى والحاضر، كما أنها تستند على فكر أصيل قد تقويه أو تضعفه عبر الزمن ثقافة واقعية متغيرة، وكذلك فإن تلك التقاليد والعلاقات الاجتماعية والتشريعات كثيراً ماكانت من العوامل الفاعلة فى تكوين البيئة المعمارية والعمرانية فى مجتمعاتنا العربية بالذات، والتى تعانى من حين لآخر من ظاهرة الثبات على نسق أو نظام غالباً ما يقل فيه العطاء، والذى يؤدى بنا إلى التقليد والاستنساخ لما هو موجود بالخارج والذى يرمى بنا فى حالتى الضياع والاغتراب.
- أن الفكر السائد فى المجتمع واحترامه لتقاليده وعلاقاته الاجتماعية وحتى تشريعانه العمرانية يجعل من التغيير الحاصل فى تشكيل المبانى ممكناً ومقبولاً لأنه لا يخل بالمتعارف عليه فكراً ومعتقداً، وهنا نجد أن الاستمرارية تحقق مع الماضى فكرياً وتنتج نماذج تستند على القديم لكنه بشكل متطور، بينما الانقطاع الذى حدث فى التشريع كما رأينا وهو جزئية من الفكر المجتمعى بعد تغيره عن التشريع القديم أدى إلى فرض تشكيل معمارى قد لا يواكب الفكر المجتمعى بتقاليده وعلاقاته الاجتماعية فى دولنا العربية مع مراعاة درجة الاختلاف فيما بينها على مستوى تغيرها، فإذا كانت التغيرات الفكرية فى التقاليد والعلاقات الاجتماعية غير مستمرة مع الماضى بدرجة كبيرة؛ كان التأقلم مع الانقطاع فى التشريع ممكناً ومقبولاً، وإن كان العكس وقع أفراد المجتمع فى هوة التغريب وعدم الإنتماء للمكان.
- إن تأثير جزئية التشريع المنظم للبيئة المعمارية العمرانية، خاصة بعد تلك التغييرات الجوهرية فى قوانينه والتى انقطعت صلتها الفكرية السابقة هى التى أثرت على المظهر المعمارى والعمرانى لمدننا العربية، وهذا ما أدى بدوره إلى انعكاس تأثير المنتج الجديد المواكب لتلك التشريعات على الأفراد بجميع تخصصاتهم، وأدى إلى حالات التغيير فى الفكر والمعتقد والثقافة. وطالما سلمنا بإن التغيير من سنن الحياة سواء فى الداخل أو الخارج لابد لنا من الرجوع لتعاقب حالتى الاستمرارية والانقطاع لأنهما سيوفران حلولاً جيدة للواقع الذى قد يتماشى مع أحد مفاهمهما من حين لآخر.
- ربط الفكر الماركسى (الاستمرارية) بالتغيير فى العمارة والعمران.
- ربط الفكر البراجماتى (الانقطاع) بالتغيير فى العمارة والعمران.

JES, Assiut University, Faculty of Engineering, Vol. 44, No. 3, July 2016, pp. 442 – 458

CONTINUITY AND DISCONTINUITY ARE TWO CONTINUED EVOLUTION SIDES IN ARCHITECTURE AND URBANISM. CRITICAL VIEW

Abstract

The issue of continuity and discontinuity has occupied an important status when we look ahead for the architectural evolution and its continuity over the scene, which is searched by the architecture and urbanism in anywhere and time.

The issue of returning to the past or pointing back to it, or even overlooking it, has raised a wide argument bearing intellectual trends that mimic the past, the present and the future.

Here we can ask a question, which is: What is that past that we are talking about ? Is it the prevailing societal thought that prevails or the beliefs that control individuals and their activities in the community during that instance, Or is it that ARCHITECTURAL AND URBAN appearance legacy for places lived by our ancestor in the past ?

Then comes another question completes what the first one started ,Says: Which any of issues mentioned in the first question that may continue or interrupted intellectually for a period of time, can influence more in in the desired architectural development and progress and how.?

The research will attempt to answer these two questions through analytical critical vision of the philosophical principle of the cases of continuity and discontinuity out from the Marxist and Pragmatic prospective ,and find out the suitability of some of its understanding to the changes occurred in the present components, in particular the social and architecture thought or architecture and Urbanism.

Of the most important findings of this study, is that the change occurred in the prevailing societal thought and the beliefs in our Arab societies with what they bear of legacy during periods of time, either its continuity of its originality is available or not, is the main motivation that imposes respond to continue both continuity and discontinuity on architectural and Urban appearance in any approach that can cope the reality of any place or, but to respect constants (**Quran and Sunnah**) and to adapts to any of the variables that fit interior or exterior of our Arab societies.